الفصل الرابع عشر

المجاعة والوباء

كان المسلمون فى المدينة وفى شتى الأرجاء من شبه الجزيرة ينعمون بأنباء النصر الذى حالف جنودهم فى العراق والشام ، وبأخماس الفىء ترد إلى الخليفة ، فيقسمها بينهم أعطيات تزيدهم رخاء ، وتنقلهم من شظف البداوة وتقشفها إلى ما يشبه الحضارة ليناً وطراوة . فقد زادتهم هذه الأعطيات قدرة على أن يبتاعوا من تجارة اليمن والشام ما يشاءون ، وأن يقتنوا من خيرات مصر تجىء إليهم محمولة على السفن ما يجدون فى اقتنائه متاعاً لم يكن لهم من قبل بمثله عهد . وزادهم ذلك إقبالاً على الحياة وتحمساً للفتح ، واستمساكاً بالدين القيم الذى يسَّر لهم نصر الدنيا والآخرة .

وإنهم لكذلك ناعمون إذ فجأهم القدر ، فى أخريات السنة السابعة عشرة وطيلة السنة التى تلتها ، بهولين عظيمين ؛ أصابهم أحدهما فى موطنهم من شبه الجزيرة ، وأصاب الآخر إخوانهم المجاهدين فى الميادين . فأما أوّل الهولين فالمجاعة التى انتشرت فى بلاد العرب من أقصى جنوبها إلى أقصى الشمال ، والتى دامت تسعة أشهر هلك فيها الزرع والضرع ، والحرث والنسل ، وأصاب الناس منها أشد الجهد والبلاء . وأما الهول الثانى فطاعون عَمَواس الذى امتدّ من الشام إلى العراق ، فأفنى الألوف من خيرة المسلمين ، رجالا ونساء ، جنداً ومدنيين ، حتى ارتاع له عمر وارتاع له الناس جميعاً أيما ارتياع .

وسبب المجاعة أن أمسك المطر فى شبه الجزيرة كلها تسعة أشهر كاملة ؛ وأن تحركت الطبقات البركانية من أرضها فاحترق سطحها وكل ما عليه من نبات ، فصارت الأرض سوداء مجدبة كثيرة التراب ، فإذا تحركت الريح سَفَتْ رماداً . لذا سمى هذا العام عام الرمادة . ونشأ عن إمساك المطر وهبوب الرياح وهلاك الزرع والضرع جوعٌ أهلك الناس والأنعام ؛ فقد فنى الكثير من قُطْعان الغنم والماشية ، وجف ما بقى منها ، حتى كان الرجل يذبح الماشية فيعافها لقبحها برغم جوعه وبلواه . ومن ثم أقفرت الأسواق فلم يبق فيها ما يباع ويشترى ، وأصبحت الأموال فى أيدى أصحابها لا قيمة لها إذ لا يجدون لقاءها ما يسدّ رمقهم . وطال الجهد واشتد البلاء ، فكان الناس يحفرون أنفاق

اليرابيع والجُرْذان يخرجون ما فيها .

كان أهل المدينة أحسن من غيرهم حالاً أول العهد بالمجاعة . فالمدينة حضر ادّخر أهلها حين الرخاء ما اعتاد أهل الحضر ادخاره . فلما بدأ الجدب جعلوا يُخرجون ما ادخروا يعيشون منه . أما أهل البادية فلم يكن لهم مُدَّخرٌ فاشتد بهم الكرب من أول الأمر . ثم إنهم هرعوا إلى المدينة يجأرون إلى أمير المؤمنين بالشكوى ، ويلتمسون لدى أهلها فُتاتاً يقيمهم . وازداد هؤلاء اللاجئون عدداً فضاقت بهم المدينة ، واشتد أهلها بالبلاء ، فصاروا فى مثل حال أهل البادية جدباً وجوعاً .

ماذا يصنع عمر بنفسه ؟ وماذا يصنع بهؤلاء الجياع ؟ لقد كان بيت المال فى يده ، وكان فى مقدور عماله بالعراق والشام أن يبعثوا إليه ما يُبْقى به على نظام عيشه قبل المجاعة ، ثم كان له من العذر لو أنه فعل ، أن تبعته كانت تقتضيه ألا يبلغ من الحمل على نفسه والقسوة بها فينوء به الجهد عن رعاية سائر المسلمين . ولكن تصرفه فى هذا الموقف كان مثلاً رائعاً يجدر بكل من ولى الأمر فى أمة أن يعرفه وأن يحتذيه .

حدث بعد ما اشتدت المجاعة أن جيء عمر بخبز مفتوت بسمن ، فدعا رجلاً بدوياً فأكل معه فجعل البدوى يَتَّبع باللقمة الوَدَك إلى جانب الصفحة ، فقال له عمر : كأنك مقفر من الودك ؟ وأجابه الرجل : أجل ! ما أكلت سمناً ولا زيتاً ولا رأيت آكلاً له منذ كذا وكذا إلى اليوم . فحلف عمر لا يذوق لحماً ولا سمناً حتى يحيا الناس ، وظل على هذا العهد حتى أذن الله فعاد المطر وزال عن الناس الجدب .

وقد كان جاداً فى هذا العهد كل الجدّ . قَدِمت السوق عُكَّةٌ من سمن ووَطْبٌ من لبن ، فاشتراها غلام له بأربعين درهماً ، وذهب إليه الغلام فقال له : قد أبر الله يمينك وعظّم أجرك . قَدِم السوق وطب من لبن وعكة من سمن فابتعتهما بأربعين . قال عمر : أغليت فَتَصَدقْ بهما فإني أكره أن آكل إسرافاً . وأطرق هنيهة ثم قال : كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم .

حكمة ما أعظَمها وما أجلَّها لذاتها ! وهى أكثر عظمة وجلالاً إذ تصدر من رجل اجتمع له يومئذ من ملك كسرى وملك قيصر ما كان المسلمون يفاخرون به فارس والروم والعالم كله . اجتمع له العراق والشام وما فيهما من خير ونَعْمة . وقد كان عمر قديراً يومئذ أن يجمع من ترف الفرس ونعيم الروم ما شاء . لكنه كان يرى النعيم تعلقاً بالدنيا ، والترف مَضلّةً لصاحبه ، فسما عليهما ابتغاء الآخرة وابتغاء وجه الله ورضاه ، وكان يرى أنه ، وهو

أمير المؤمنين ، لا يمكن أن يعنيه شأن الرعية إذا لم يشعر بما يشعر به أكثرهم فقراً وإملاقاً ، ليسارعَ إلى القضاء على الفقر وعلى الإملاق . رآه الناس عام الرمادة وقد اسودّ لونه وكان أبيض مشرباً بحمرة ؛ ذلك أنه كان يأكل السمن واللبن واللحم ، فلما أمحل الناس حرّمها على نفسه وأكل بالزيت ، وأكثر من الجوع ، حتى كان الناس يقولون وقد رأوا ما أصابه : لو لم يرفع الله المحل عام الرمادة لظننا أن عمر يموت همًّا بأمر المسلمين .

والواقع أنه اهتم بأمرهم وبذل فى سبيلهم كل جهده . كتب إلى عمّاله فى العراق والشام يستنجدهم لغياث أهلهم فى شبه الجزيرة . وكانت عباراته إلى هؤلاء العمال صادرة من قلبه ، تشهد بسمو تقديره لِتَبِعته ، وعظم شعوره بأنه مسئول أمام الله وأمام ضميره عن كل فرد من رعيته . كتب إلى عمرو بن العاص بفلسطين يقول : « سلام عليك ! أما بعد ، أفتراني هالكاً ومَنْ قِبَلِى ، وتعيش أنت ومَنْ قبلك ! فيا غوثاه ! يا غوثاه يا غوثاه ! » وأجابه عمرو : « أما بعد ، فلبِّثْ . لأبعثن إليك بعير أولها عندك وآخرها عندى » . وبعث عمر بمثل هذا الكتاب إلى معاوية بن أبى سفيان وأبى عبيدة بن الجراح بالشام ، وإلى سعد بن أبى وقاص بالعراق ، فأجابوه جميعاً بنحو مما أجاب به عمرو بن العاص .

وكان أبو عبيدة بن الجرّاح أسرع الأمراء استجابة لنداء عمر وغياثاً لأهل شبه الجزيرة ؛ سبقهم جميعاً فقدم فى أربعة آلاف راحلة محملة طعاماً ، فولاّه عمر قسمته فيمن حول المدينة . فلما فرغ من ذلك أمر له عمر بأربعة آلاف درهم ، فقال : لا حاجة لى فيها يا أمير المؤمنين ! إنما أردت الله وما قِبَلَهَ ، فلا تدخل علىَّ الدنيا ! لكن عمر أجابه : خذها فلا بأس بذلك إذا لم تطلبها . وإني قد وَلِيت لرسول الله مثل هذا فأعطاني بعد أن قلت له مثل ما قلت لى . وقبض أبو عبيدة المال وانصرف إلى عمله .

وبعث عمرو بن العاص الطعام من فلسطين على الإبل وفى السفن من ثغر أيْلَة (١) . بعث فى البحـــر عشرين سفينة تحمل الدقيق والوَدَك . وبعث فى البر ألف بعير تحمل الدقيق . وبعث معاوية بن أبي سفيان ثلاثة آلاف بعير من الشام . وبعث سعد بن أبي وقاص ألف بعير من العراق تحمل كلها الدقيق ، هذا خلا خمسة آلاف كساء أرسلها عمرو ، وثلاثة آلاف عباءة أرسلها معاوية .

وولّى عمر من يُطعم الناس ويكسوهم فى أمصار المملكة وباديتها ، وتولّى هو بنفسه إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليهم من العرب . وانصرف رسله إلى أرجاء شبه الجزيرة

---

(١) أيلة هى العقبة اليوم .

يخففون عن الناس بلواهم ، فلقى الموكلون بالتوزيع ما بعث به سعد بن أبي وقاص من الأقوات عند أفواه العراق ، فأقاموا ينحرون للناس الجُزُر ويطعمونهم الدقيق ويلبسونهم العَبَاء حتى رفع الله البلاء . وكذلك فعل الرسل ما بين مكة والمدينة . وقال عمر لرسوله الذى بعثه يلقى عير الشام : « أماما لقيت من الطعام فمِلْ به إلى أهل البادية . فأما الظروف فاجعلها لُحفاً يلبسونها ، وأما الإبل فانحرها لهم يأكلون من لحومها ويحملون من ودكها ولا تنتظر أن يقولوا ننتظر بها الحيا . وأما الدقيق فيصطنعون ويُحرزون حتى يأتي أمر الله بالفرج » .

تولّى عمر إطعام أهل المدينة ومن اجتمع إليها ، فكان يأدم الخبز بالزيت يجعله ثريداً ، وينحر بين الأيام الجزور فيجعلها على الثريد ، ويأكل مع القوم مما يأكلون . فلما أقبلت الإبل من العراق والشام كان ينحر على مائدته كل يوم عشرين جزوراً يُطعمها الناس ، وكان له عيون يجتمعون عنده إذا أمسوا فيخبرونه بكل ما رأوه يومهم . وأمر ليلة بعد أن فرغ الناس من العشاء بإحصاء الذين طعموا على موائده فكانوا سبعة آلاف رجل . وأحصيت العيالات التى لم تأت والمرضى والصبيان فكانوا أربعين ألفاً . وزاد هؤلاء وأولئك بعد أيام فكان الذين تعشّوا عنده عشرة آلاف والآخرون خمسين ألفاً . وكان العمّال يَقْدَمون فى السَّحَر إلى قدور عمر فيعملون حتى يصبحوا ، ثم توزَّع العصيدة ويوزّع اللحم على المرضى والصبيان والعيالات ممن لا ينالون طعامهم على موائد أمير المؤمنين . وكان عمر يتعهد هؤلاء جميعاً بنفسه ليطمئن إلى أنهم حصلوا على ما يدفع عنهم غائلة الجوع . وكان يرسل الدقيق والتمر والأدْم إلى منازل القادرين على تهيئتها لغذائهم شهراً بشهر ، يوزع ذلك عليهم فى نظام يشبه نظام « البطاقات » أيام الحروب فى عهدنا الحاضر . يزيد فيه وينقص منه على قدرما عنده . وكان لذلك يقول : « لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على أهل كل بيت عدتهم فيقاسموهم أنصاف بطونهم حتى يأتي الله بالحيا فعلت ، فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم »[1] .

مع هذه العناية من عمر بالعرب جميعاً فشا المرض فى الناس ، وهلك منهم كثيرون ،

---

(١) أورد ابن سعد فى الطبقات روايات كثيرة عن عناية عمر بالناس وقسوته على نفسه وأولاده . من ذلك أنه أتى بلحم فيه سمن فأبى أن يأكله وقال : كل واحد منهما أدم . واستسقى رجلا فأتاه بعسل فرده وقال : والله لا يكون فيما أحاسب به يوم القيامة ! ورأى بطيخة فى يد بعض ولده فقال : بخ ، بخ يا ابن أمير المؤمنين ! تأكل الفاكهة وأمة محمد هزلى ! فخرج الصبى هارباً يبكى فسكت عمر بعد ما علم أنه اشتراها بكف من نوى . ومر عام الرمادة على امرأة وهى تعصد العصيدة فقال : ليس هكذا ، فأخذ المسوط فأراها . ورآه أبو هريرة يحمل جرابين وعكة زيت فرأى قوماً مسنين فطبخ لهم حتى شبعوا . إلخ . إلخ .

فكان يتعهد المرضى ، ويبعث بالأكفان لمن مات ويصلّى عليهم . وقد استطاع خلال الأشهر التسعة التى قاسى الناس فيها هول الكارثة أن يخفف منها ما قدر أمراء الأنصار على إمداده . فلما قصرت مواردهم ازداد فى شبه الجزيرة المرض والموت وبلغ الهول منهم أشده ، فلم يجد عمر ملجأً من الله إلا إليه . لقد كان طيلة هذه الأشهر التسعة يصلّى بالناس العشاء ثم يدخل إلى بيته فلا يزال يصلى حتى آخر الليل ، ضارعاً إلى الله ألا يجعل هلاك الأمة على يديه . فلما لم يستجب ربه دعاءه ، ولم تُسعف السماء الناس بمطر ، عزم على أن يستسقى ، فكتب إلى عمّاله أن يخرجوا بالناس فى يوم عيَّنه ، وأن يتضرعوا إلى ربهم أن يرفع المحل عنهم ، وخرج هو بالناس ذلك اليوم وعليه بُرْد رسول الله ، فلما انتهى إلى المصلّى تضرّع الناس وألحّوا فى الدعاء ، وبكى عمر بكاء طويلا حتى اخضل لحيته . وكان العباس بن عبد المطلب قائماً إلى جنبه ، فأخذ عمر بيده ورفع رأسه إلى السماء وقال : « اللهم إنا نستشفع بعمّ رسولك إليك ! » ، ودعا العباس ربه وعيناه تهملان . وأقام الناس يدعون ربهم تضرعاً وخشية وقد أيقنوا الموت إن لم يُسعفهم الله بالمطر . واستجاب الله لعباده المؤمنين الذين صدقوه ما عاهدوا عليه ، إن الله بعباده لرءوف رحيم .

استجاب الله لعباده ففتح أبواب السماء بماء منهمر وسيل دافق . وسرعان ما رَبَتِ الأرض واخضرّت ، فلم يبق للأعراب الذين قدموا المدينة أن يقيموا بها . لذلك جعل عمر يسير بينهم يقول : اخرجوا ! اخرجوا ! الحقوا ببلادكم ! يخشى أن يظل منهم بالمدينة من يظنها ألين عيشاً . بل إنه وكل بهؤلاء الأعراب من يخرجونهم إلى باديتهم ويعطونهم قوتاً وحُملاناً تبلغهم منازلهم ، ثم كان يُخرج بنفسه من يحتاج خروجهم إلى أمره . فلما بلغوا مساكنهم عادوا إلى مألوف حياتهم وإن لم يجدوا من أعطيات الفىء ما يرفّه عنهم ؛ فقد شُغل عمر بهذه المجاعة فى شبه الجزيرة فشدد أوامره إلى جنده ألا يقاتلوا عدوهم إلا إذا أكرهوا دفاعاً عن أنفسهم .

لم يبعث عمر جُبَاته عام الرمادة ليقبضوا الزكاة ، بل أخَّرهم إلى أن ارتفع الجدب . فلما أطمأن الناس إلى العيش وكثرت عندهم مادته ، أمر الجباة أن يسيروا إليهم وأن يأخذوا من كل قادر حصتين : حصة عن عام الرمادة ، وأخرى عن العام الذى بعده ، وأن يقسموا إحدى الحصتين على المعوزين ، ويَقْدموا عليه بالثانية . بذلك زاد فى تخفيف الفقر عن الفقراء ، ثم لم يُرهق غيرهم ولم يحمِّلهم ما لا طاقة لهم به . .

يجدر بنا أن نقف هنيهة ههنا ننظر فى سياسة عمر كما تجلوها تصرفاته فى أثناء هذه

الشدة التى أصابته وأصابت قومه . ولسنا نريد بوقفتنا أن نبدى ما تثيره هذه التصرفات فى النفس من إعجاب بعمر وإكباره له ، وإنما نريد أن نستشفّ من هذه التصرفات فكرة مجملة عن صورة الحكم فى ذهن رجل ألقت عليه الأقدار أن يكون أول بادئ بتفصيل نظام الحكم فى الجماعة الإسلامية . وأشد هذه التصرفات أخذاً بالنظر حمل عمر على نفسه وقسوته عليها ، وأنه لم يكن يحمل عليها رغبة عن الطيبات مما رزق الله ، فالإسلام لا يدعوه للرغبة عنها ، وإنما كان يفعل ليشعر بشعور الضعفاء والمعوزين وذوى الحاجة . وذلك قوله : « كيف يعنينى شأن الرعية إذا لم يمسنى ما يمسهم ! » . لذلك نزل بعيشه إلى مستوى حياة الفقراء الذين لم يكونوا يجدون إلا مائدته يجلسون إليها مع الألوف من الجائعين لينالوا ما يُبْقى عليهم الحياة ، فكان يأكل معهم ولا يرضى أن يتناول طعامه فى بيته حتى لا يظن أحد أنه يُؤثر نفسه بشىء لا يناله ذو الفاقة من قومه . وقد حقق بتصرفه هذا غرضين جليلين : أولهما الشعور بألم الناس شعوراً يدفعه إلى مضاعفة الجهد فى العناية بهم والعمل لرفع الضر عنهم ، والثانى طمأنينة السواد إلى أن أمير المؤمنين يشاركهم فى بأسائهم وضرائهم ، فلا تثور نفوسهم ، بل يظلون راضين بكل ما يُصيبهم ، لأن أكبر رجل فى الدولة يشاركهم فيه . وقد بلغ عمر من هذين الغرضين خير ما يبلغه حاكم فى أية أمة من الأمم .

كان عمر إذاً يرى أن أول واجب على ولىّ الأمر أن يجعل حياته فى مستوى الحياة لجمهور الشعب . لكنه كان يرى كذلك أن يدع القادرين على تثمير المال واستغلال الأرض يستمتعون بطيبات الرزق ، ليزيدهم المتاع بها حرصاً على إتقان العمل وسعياً لزيادة خيراته ومضاعفة ثمراته . بذلك يزداد جمهور الشعب لولىّ الأمر حباً ، وبسياسته تعلقاً ، وعلى التضحية فى سبيل هذه السياسة إقبالاً ، وتزداد مكانة ولىّ الأمر فى نظر القادرين وذوى المكانة سموّاً إذ يرون تعلق الشعب به ومحبته له ، فلا يدور بخلد أحدهم أن يناوئه أو يخرج عليه ، ثم تزداد أواصر الودّ بين طبقات الشعب المختلفة تمكيناً . لأن ولىّ الأمر يقوم من هذه الطبقات مقام القلب من جسم الإنسان يوزّع بينها أسباب الحياة بالقسط ، ويوجهها جميعاً للخير العام .

لم تكد المجاعة تنقضى ويرفع الله عن الناس الضر حتى روّعهم النبأ بانتشار الوباء فى الشام وامتداده إلى العراق . فقد فشا الطاعون فى عمَواس من أرض فلسطين ، ثم انتقلت عدواه إلى الشام ، فجعل يفتك بكل من يصابون به فتكاً ذريعاً مزعجاً . لم يكن الواحد منهم يكاد يُطْعَن حتى يدركه الموت ، وما أكثر الذين كانوا يُطْعَنون ! وطال هذا الوباء شهراً هلك

فى أثنائه من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً ، فيهم من أكابر الناس وأشرافهم عدد غير قليل ، منهم أبو عبيدة بن الجرّاح ، ومعاذ بن جبل ، ويزيد بن أبي سفيان ، والحارث ابن هشام ، وسُهيَل بن عمرو ، وعتبة بن سهيل ، وغيرهم ممن فى طبقتهم . وكان الحارث ابن هشام قد خرج من المدينة إلى الشام فى سبعين من أهل بيته فماتوا جميعاً لم يبق منهم إلا أربعة . وقيل إن أربعين من ولد خالد بن الوليد ماتوا فى هذا الطاعون الذى انتشر فى الجند كما انتشر بين المدنيين ، فأفزع الناس وأخافهم عواقبه . فلو أن أعداءهم حاولوا العود اليهم لعجزوا هم عن مقاومتهم . لكن الروم أشفقوا من الوباء أن يصيبهم منه ما أصاب المسلمين ، فلم يفكروا فى الرجعة إليهم خوفاً على أنفسهم من هذا الهول الذى فدح عدوَّهم .

لم تكن أنباء هذا الوباء مزعجة أول انتشاره . وكان عمر قد أزمع الذهاب إلى الشام ينظِّم شئونه بعد ما تم فتحه . وسار من المدينة ، حتى إذا بلغ سَرْغ على مقربة من تَبُوك لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجرّاح ويزيد بن أبي سفيان وشُرَحبيل بن حَسَنَة فأخبروه أن الأرض سقيمة ، وذكروا له طرفاً من أنباء الطاعون وشدّة إصابته . وراع عمر ما سمعه منهم . فلما أمسى جمع المهاجرين الأوّلين يستشيرهم : أيتابع طريقه إلى الشام مع ما فيها من وباء أم يعود أدراجه إلى المدينة ؟ واختلف رأيهم ، فمن قائل : خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، وما نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك ؛ ومن قائل : إنه لبلاء وفناء وما نرى أن تقدم عليه . واختلف الأنصار كما اختلف المهاجرون كأنما سمعوا قولهم فأعادوه . هنالك جمع عمر مُهَاجِرة الفتح من قريش فاستشارهم ، فلم يختلف عليه اثنان ، بل قالوا جميعاً : ارجع بالناس فإنه بلاء وفناء . وأمر عمر فنادى ابن عباس فى الناس ليُعِدُّوا رواحلهم . فلما صلوا الصبح التفت عمر إليهم وقال : إني راجع فارجعوا » .

لم يكن أبو عبيدة حاضراً مشاورات عمر وما انتهى إليه من رأى ، فلما عرف ذلك قال له : « أفِراراً من قدر الله ياعمر ! » ودهش الخليفة لهذا الاعتراض ، ونظر ملياً إلى أبي عبيدة ثم قال : « لو غيرُك يقول هذا يا أبا عبيدة ! نعم ! فراراً من قدر الله إلى قدر الله » . وأطرق هنيهة ثم أردف « أرأيت لو أن رجلا هبط وادياً له عُدْوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس يرعى مَنْ رَعَى الجدبة بقدر الله ، ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله ! » .

خلا عمر بأبي عبيدة بعد هذا الحديث يتذاكران فى شئون الشام وفيما يجب أن يقابل الوباء به . وإنهما لفى حديثهما إذ أقبل عبد الرحمن بن عوف فرأى النـــاس

فى هرج ، فسألهم ما شأنهم ، فلما أخبروه الخبر قال : عندى من هذا علم ، سمعت . رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه » . واطمأن عمر لهذا الحديث وقال : الحمد لله ، انْصَرِفوا أيها الناس !

وعاد عمر بالناس إلى المدينة ، وعاد أمراء الأجناد ومن معهم إلى أعمالهم . وجعل عمر يفكر فى أمر المسلمين بالشام وفيما دهاهم من فتك الطاعون ، فأخذته الشفقة بأبى عبيدة أن يصاب به وأن يتوفى منه وكان عمر يرجو أن يطول بأبى عبيدة العمر ليخلفه على إمارة المؤمنين . أليس أبو بكر قد دعا الناس لمبايعة أحد الرجلين : أبى عبيدة أو عمر ، فبايع الناس أبا بكر ، ثم بايعوا عمراً ؛ فجدير به أن يستخلف أبا عبيدة وأن يدعو الناس لمبايعته ؛ فإذا تُوُفِّ فى الطاعون فمن ذا ترى عمر يستخلف ؟ هذا إلى أن عمر كان يحب أبا عبيدة أصدق الحب ، ويضعه فى أسمى مكان من نفسه ، ولذا فكّر فى إبعاده عن الشام لاستخراجه من الوباء . لكنه كان يعرف ما انطوت عليه نفس صاحبه من صدق الإيمان بالله وبفكرة الواجب ، وأنه لن يدع رجاله بالشام فراراً بنفسه من قدر الله ، فكتب إليه فلم يشر إلى شىء مما دار بنفسه ، بل قال له : أما بعد ، فإنى قد عرضتْ لى إليك حاجة أريد أن أشافهك فيها فعزمت عليك . إذا نظرت فى كتابى هذا ألا تضعه من يدك حتى تُقبل إلىَّ » . وقرأ أبو عبيدة الكتاب فأدرك مراد عمر ، وأنه إنما حرص على أن يستخرجه من الوباء ، فقال : يغفر الله لأمير المؤمنين ! ثم كتب إليه : إنى قد عرفت حاجتك إلىَّ ، وإنى فى جند من المسلمين لا أجد بنفسى رغبة عنهم ، فلست أريد فراقهم حتى يقضى الله فىَّ وفيهم أمره وقضاءه . فَحلِّلْنى من عزمتك يا أمير المؤمنين ودعنى فى جندى » . وقرأ عمر هذا الكتاب فبكى ، فسأله من حوله : أمات أبو عبيدة ؟ فأجاب ولا يزال الدمع آخذاً بخناقه : « لا ! وكأن قد » .

وددت لو أنى وقفت عند كلمة عمر حين اعترض أبو عبيدة عوده إلى المدينة بقوله : أفِراراً من قدر الله . وأود لو أقف الآن عند هذين الكتابين اللذين تبادلهما عمر وأبو عبيدة . ففى كلمة عمر وفى الكتابين ما يجلو لنا صفحة من حياة ذلك العصر فيها عناصر قوّته وأسباب انفساح الإمبراطورية الإسلامية فيه . لكنى أوثر أن أقص ما حدث إلى أن رفع الله البلاء وإلى أن عادت الحياة فى الشام سيرتها الطبيعية ، فذلك يزيد هذه الصفحة جلاء ، ويكشف عن تفكير المسلمين الأولين من أصحاب رسول الله وعن حريتهم فى هذا التفكير وعدم تقيدهم إلا بالحق يملك عليهم بصائرهم ويهديهم الله إليه على علم .

قرأ عمر كتاب أبي عبيدة فبكى ، وأخذ يفكر فى الوسيلة لإنقاذ أهل الشام مما نزل بهم . وشاور أهل الرأى ، ثم كتب إلى أبي عبيدة يقول : « إنك أنزلت الناس أرضاً عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نَزِهة » . وإن أبا عبيدة ليفكر فى تنفيذ هذا الأمر إذ طُعِن فمات ، فخلفه معاذ بن جبل ، فطُعِن هو وماتا جميعاً . واستخلف معاذ عمرو بن العاص فخطب الناس فقال : إن هذا الوجع إذا وقع فإنما يشتعل اشتعال النار فتحصَّنوا منه فى الجبال . ثم خرج وخرج الناس فتفرّقوا فى المرتفعات ، فأذهب ذلك شدة الوباء وانتهى بزواله . وبلغت عمر مقالة ابن العاص فلم يكرهها ، بل رأى فيها تنفيذاً للأمر الذى بعث به إلى أبي عبيدة .

ما علة هذا الوباء ؟ وإلى أى سبب يرجع ؟ ليس فيما لدينا من الروايات ما يجلو لنا هذه العلة ، ويكشف لنا عن سبب نطمئن إليه ونقتنع به . وإن بعض المتأخرين ليذهبون إلى أن طاعون عَمَواس نجم عن كثرة القتلى فى الميادين كثرة تعذر معها دفن أكثرهم ، فأثار ذلك فى الجو من الميكروبات ما كان سبب الوباء أمَّا المتقدمون من المؤرخين فيردون سببه إلى غضب من الله استنزله أبو عبيدة على أهل الشام لشرب جماعة من المسلمين فيه الخمر . فقد كتب إلى عمر : « إن نفراً من المسلمين أصابوا الشراب ، فسألناهم فتأولوا وقالوا خيَّرنَا فاخترنا ، قال : فهل أنتم منتهون ولم يعزم علينا » . ولم يكن القرآن قد نص على حد للخمر ، ولم يحدّ رسول الله ولا حد أبو بكر شارباً لها . لذلك جمع عمر أصحاب الرأى بالمدينة ، وقص عليهم ما جاء فى كتاب أبي عبيدة ، فرأوا أن عبارة القرآن : (فهلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُون) ، تعنى الأمر ، أى فانتهوا ، وأجمعوا على أن يُضْرَب الذين شربوها ثمانين جلدة وأن يُفسّقوا (١) وكتب عمر إلى أبي عبيدة أن ادعهُم ، فإن زعموا أنها حلال فاقتلهم ، وإن زعموا أنها حرام فاجلدهم ثمانين . ودعاهم أبو عبيدة وسألهم على رءوس الناس ، فقالوا : إن الخمر حرام ، فجلدهم ثمانين وقال : ليحدثن فيكم يأهل الشام حادث ، فكان الطاعون .

وأحسب الأكثرين اليوم يؤثرون رأى المتأخرين أو ما يماثله ، ولا يرون دعاء أبي عبيدة على أهل الشام سبب الوباء . وقد سقت الكلمة التى نسبت إلى أبي عبيدة وإننى لفى ريب من صدورها عنه . فما كان له أن يرجو هذا البلاء الماحق لأهل الشام جميعاً لغير شيء إلا أن

---

(١) تجرى طائفة من الروايات بأن عمر بن الخطاب استشار فى الخمر يشربها الرجل ، فأشار على بن أبي طالب بأن يحد حد القذف فيضرب ثمانين ، وقال فى تعليل ذلك : إن الرجل إذا شربها سكر ، وإذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى . وأخذ عمر بهذا الرأى فجلد فى الخمر ثمانين – راجع الموطأ ص ٣١١ .

بعضهم شرب الخمر . فما أكثر ما يرتكب الناس من آثام أعظم من أم الكبائر ثم لا يرسل الله عليهم البلاء حاصداً يصيب المذنب والبرىء ! وأبو عبيدة رجل رقيق الطبع شديد الإيمان ، أبر بمن يسوسهم من أن تصدر عنه هذه الكلمة . ما بالك وفيمن يسوسهم من الجند من رأيت من وفائه لهم ما يشهد به كتابه لعمر حين دعاه إلى المدينة ليستخرجه من الطاعون ! على أن ريبنا فى صدور هذه الكلمة من أبى عبيدة لا ينفى أن قوماً شربوا الخمر ، فلما سألهم تأولوا قوله تعالى : (فهلْ أَنْتُمْ مُنْتهُون) ، وأنه رفع أمرهم إلى عمر ثم أوقع عليهم الحد تنفيذاً لأمر الخليفة . فتواتر الرواية بهذا الحادث وتنفيذ الحد فى عهد عمر ومن بعده يقطع بصحتها . وهى تتفق وما حدث فى حياة النبى حين دعا عمر الله أن يبيِّن لهم فى الخمر ، وأن يبين لهم فيها بياناً شافياً ، لأنها تُذهب العقل والمال . لا عجب وذلك شأنه أن يقسو على شاربيها وأن يضع لها الحد وأن يقيمه فى خلافته ، فيقام من بعده على أنه من حدود الله .

وأياً ما كان سبب الوباء فقد أدى تفرُّق الناس فى المرتفعات ، استجابة لدعاء عمرو ابن العاص ، إلى ذهاب شدته ثم إلى زواله بعد أن أفنى من المسلمين بالشام خمسة وعشرين ألفاً ، وبعد أن انتقل من الشام إلى العراق ففتك فيه بأهل البصرة أشد مما فتك بغيرهم . وكان أهل البصرة من خيرة جند المسلمين . مع ذلك لم يفكر يزدجرد فى استرداد العراق أكثر مما فكر هرقل فى استرداد فلسطين أو الشام ، فقد خشى ما خشيه هرقل أن يصاب جنوده بالوباء وأن ينتقل معهم إلى أرض فارس ، فتكون الطامة شرًّا من الحرب وآثارها .

كيف يواجه عمر الموقف بعد أن زال الوباء ؟ إنه إن يترك الشام على حاله بعد فناء من فنى من المسلمين ، وبعد أن مات من جندهم به عدد عظيم ، يتعرض الفتح فيه لعواقب لا يرضاها . فقد يفكر الروم فى القدوم إليه يحاولون استرداده . ثم إن النظام الاقتصادى فيه قد شابه اضطراب سببته مواريث الذين ماتوا ، وهو لا يأمن أن يثير توزيع التركات ثائرات بين المسلمين أنفسهم . فليس له إلا أن يذهب بنفسه ، فينظر فى ذلك كله ويضع كل أمر فى نصابه . لذا فصل من المدينة فى جماعة من الصحابة وخلّف علياً عليها ، واتخذ الطريق إلى أيلة . فلما بلغها دفع إلى أُسْقُفِّها قميصاً له قد انجاب مؤخره عن مُقَدَّمه من طول السير ، وقال له : اغسل هذا وارقعه . وغسل الأسقفّ القميص ورقعه ، وخاط قميصاً آخر مثله ، وعاد بالقميصين إلى عمر وقال له : أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته ، وأما هذا فكسوة لك منى . فلبس عمر قميصه وردّ الآخر وقال : هذا أنشفهما للعرق .

وسار عمر من أيلة فنزل الجابية فجعلها مقرَّه . وذكر له عمّاله بالشام وفلسطين ما كان

من أمر المسلمين وما نزل بهم ، فزار بلاد سورية جميعها ، وتفقد شئون المسلمين فى شتى أرجائها ، وبذل لهم ، ورتّب منازلهم بدمشق وحمص وسائر المدن التى بلغ فيها فتك الوباء أشده . ثم إنه نظّم ثغور الشام ومسالحه ، وأعاد توزيع القوات فى كوَره ، وسمى الرجال الذين عيّنهم عليها . فلما فرغ من ذلك قسم المواريث ، فورث بعض الورثة من بعض ، وأخرجها إلى الأحياء من ورثة كل منهم . بذلك استقر كل أمر فى نصابه ، وعاد كل شىء إلى نظامه ، واطمأن الناس بعد طول الفزع ، ولم يفكر الروم فى الرجعة إلى الشام .

وكان عمر حين جاءه النبأ بموت أبى عبيدة ويزيد بن أبى سفيان قد ولىّ مكانهما شُرَحْبيل بن حسنة ومعاوية بن أبى سفيان . فلما كان بالجابية عزل شرحبيل عن عمله . وسأله شرحبيل : أعَزَله عن سخطة ؟ فقال : لا ! إنك لكما أحب ، ولكنى أريد رجلا أقوى من رجل . قال شرحبيل : فاعذرنى فى الناس لا تدركنى هُجنة . فقام عمر فقال : « أيها الناس ! إنى والله ما عزلت شرحبيل عن سخطة ، ولكنى أردت رجلا أقوى من رجل » . والحق أن شُرحبيل كان قائداً حسن المداورة بالجيوش ، لكنه لم يكن رجل سياسة يعرف كيف يوجه الناس إلى أغراضه القريبة والبعيدة . أما معاوية فكان على شبابه سياسيًّا محنّكاً ذا بصر بموارد الأمور ومصادرها .

ولما قفل عمر من رحلته بالشام إلى الجابية يريد المدينة خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « ألا إنى قد ولّيت عليكم ، وقضيت الذى علىَّ فى الذى ولّانى الله من أمركم إن شاء الله . قسطنا بينكم فيْأكم ومنازلكم ومغازيكم ، وأبلغنا ما لديكم فجنّدنا لكم الجنود وهيأنا لكم الفروج ، وبوّأناكم ووسّعنا عليكم ما بلغ فيؤُكم وما قاتلتم عليه من شأنكم ، وسمّينا لكم أطماعكم ، وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم فمن علم علْم شىء ينبغى العمل به فبلّغنا ، نعملْ به إن شاء الله » .

وحضرت الصلاة وكان عمر قد أزمع الرحيل بعدها ، فقال له الناس : لو أمرت بلالاً فأذّن ! وكان بلال قد انقطع عن الأذان منذ قُبض رسول الله ، فأراد الناس سماعه بعد إذ رفع عنهم البلاء ، ليذكروا نعمته جل شأنه ، إذ أرسل رسوله إليهم فهداهم للإسلام وأورثهم الأرض ووطّد لهم أكنافها وأذلّ لهم الفرس والروم ، فلما أصابهم الضر رفعه عنهم ولم ينزل به نقمته عليهم . وأذّن بلال بصوته الندىّ لم تغير منه السنون ، فأحيا فى نفوس الذين أدركوا رسول الله عهداً كانوا يقفون فيه وراءه صلى الله عليه وسلم صفوفاً متراصة يصلّى بهم ثم يحدثهم فيزيدهم هدى ، فلم يبق من هؤلاء واحد إلا بكى حتى بللت دموعه لحيته .

وبكى من لم يدرك النبي لبكائهم ، ثم كان عمر أشدهم بكاء لأنه كان أكثرهم لفضل الله ولفضل رسوله ذكراً . ولقد ظل هذا النداء للصلاة ، أرسله مؤذن النبي للمرة الأولى والأخيرة في جو الشام على مقربة من بيت المقدس ، علماً في التاريخ على فتح المسلمين ، واستقرار الإسلام فيها ، وقراره بها إلى يوم الدين . لذلك لا ينسى مؤرخ أن يذكره ، فهو لذاته نصر من الله وفتح مبين .

ودّع عمر أهل الشام وعاد إلى المدينة وقد استقر عزمه على أن يزور العراق . لكن الله لم يشأ له أن يزوره . وقيل إنه كان أزمع الذهاب إلى العراق قبل مسيرته إلى الشام ، فإذا بلغ شماله انحدر إلى حلب ودمشق من الفِراض ، فصرفه كعب الأحبار عن عزمه وجعله يبدأ بالشام ، فكانت رحلته إليه آخر رحلة له خارج شبه الجزيرة[١] .

أمّا وقد فرغنا من حديث عَمَواس وطاعونها وموقف عمر منه ، فلنتحدث عن دلالة ما وقع فيه على حرية المسلمين العقلية لذلك العهد ، وعما انطوت هذه الحرية عليه من عناصر القوة ، وكيف فتحت لهم أبواب الإمبراطورية العظيمة التي ظلّت تزداد على الأيام فسحة وعظمة حتى غيَّر المسلمون ما بأنفسهم فغيَّر الله ما بهم .

لما سار عمر يريد الشام فلقيه أمراء الأجناد بسرغ وذكروا له أن الأرض سقيمة فأمر الناس بالعود إلى المدينة ، اعترضه أبو عبيدة بن الجرّاح بقوله : « أفِراراً من قدر الله يا عمر ! » فقال : « نعم ! فراراً من قدر الله إلى قدر الله » . وهذا الاعتراض وهذا الجواب يصوران التفكير القدري وما وقع عليه من خلاف لا يزال قائماً إلى اليوم . ونحسب كلمة عمر أدق تصويراً للقدرية الإسلامية . فابن الجرّاح والذين أشاروا على عمر بالسير إلى الشام وقالوا له : خرجت لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدّك عنه بلاء عرض لك — هؤلاء إذ يؤمنون بأنا لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، وبأن لكل أجل كتاباً فإذا جاء أجلهم فلا

---

(١) تجرى بعض الروايات بأن كعب الأحبار خالف على بن أبي طالب عن رأيه في العراق . قيل إن عمر دعا الناس فذكر لهم أنه بدا له أن يطوف على المسلمين في بلدانهم وينظر في آثارهم وأنه استشارهم في ذلك . وسأله كعب الأحبار بأيها يريد أن يبدأ ، قال عمر : بالعراق ؛ فقال كعب لا تفعل فإن الشر عشرة أجزاء تسعة منها بالمشرق وجزء بالمغرب ؛ وبالمشرق قرن الشيطان وكل داء عضال . وقال على بن أبي طالب : يا أمير المؤمنين ، إن الكوفة للهجرة بعد الهجرة وإنها لقبة الإسلام . ليأتينها يوم لا يبقى مسلم إلا حن إليها . قال عمر : إن مواريث أهل عمواس قد ضاعت ، فأبدأ بالشام لقسم المواريث ، وأقيم لهم ما في نفسي ، ثم أرجع فأنقلب في البلاد وأبدي لهم أمري . ويرى بعض النقاد أن العبارة المنسوبة لعلى بن أبي طالب إنما نسبت إليه لتتفق مع ما حدث من بعد حين اتخاذه الكوفة عاصمته ، وأنه لم يكن ليفرق بين الشام والعراق . كما يرون أن الرواية المنسوبة لكعب الأحبار مستحدثة هي أيضاً .

يستقدمون ساعة ولا يستأخرون ، يرون أن تفكيرنا أقصر من أن يرد عادية القدر عنا ، فإذا اعتزمنا أمراً وجب لذلك علينا أن نغض الطرف عن كل ما سواه ، وأن نمضي قُدُماً في سبيله ، لا يصدنا دونه بلاء يعرض أو عقبة تقوم . وهذا الرأى يؤمن به أمراء الجند مصدر قوة ليس كمثلها قوة . والجندى الذى يؤمن بالله مكفول له النصر لا محالة . فأول ما يقضى به الإيمان الصحيح ألا يهاب الجندى الموت ، وأن يُقْدِم عليه مغتبطاً به ، فإن استُشهد فني سبيل الله وفى سبيل الوطن وفى سبيل القضية التى ينصرها ، وإن ظفر فعاش كان له فخر الأبد . وإيمان الجند بهذا الرأى هو الذى نصر المسلمين فى مختلف الميادين ، لأنهم آثروا الشهادة فى سبيل الله ، فوهب لهم الله حياة كرامة وعزة .

لكن القدرية بهذا المعنى العظيم الأثر فى حياة الجندى لا يمكن أن تكون القدرية كما يجب أن يفهمها السياسى المسئول عن مصالح الناس ومصيرهم فى الحرب وفى غير الحرب ، وكما يجب أن يفهمها المفكر الذى يقلّب الأمور على وجوهها وينظر فيها من كل نواحيها . فصحيح أن لكل أجل كتاباً ، وأن تفكيرنا أقصر من أن يردَّ عادية القدر عنَّا . لكنا يجب مع ذلك أن ننظر فى الأمور وأن نتدبّرها لنُحسن التصرف فيها إلى غاية ما يهدينا إليه علمنا وعقلنا . وما يهدينا إليه العقل والعلم وحسن التفكير هو من قدر الله ؛ كما أن إقدام الجندى على الموت فى ميدان القتال وما يصيبه نتيجة هذا الإقدام هو من قدر الله . وأول واجب على أمير الجند ألا يُلْقى بجنده إلى التهلكة بسوء رأيه ، وألا يعرِّضهم للموت حتى يستقر رأيه على ملاءمة الأحوال لخوض المعركة ، فإذا خاضها وجب عليه أن يعمل للانتصار فيها بأقل تضحية ممكنة . وأول واجب على السياسى ورجل الدولة ألا يعرّض نفسه ومن يسوسهم إلى هلكة يستطيع تجنبها ، أو يستطيع إنقاذ الناس منها ، من غير إضرار بمصلحة الدولة العليا وبسياستها للحاضر وللمستقبل . فإذا ظفر من ذلك بما أراد كان ظفره فخراً له كفخر الجندى بانتصاره ، ثم كان هذا الظفر قدراً من الله رحمةً بعباده .

وذلك ما رآه الذين قالوا عن الطاعون إنه بلاء وفناء ، وأشاروا على عمر ان يرجع إلى المدينة فسمع إلى مشورتهم ، وكان سماعه لها ونزوله عليها الحكمة كل الحكمة . فلو أنه سار إلى الشام فطُعِن فمات لأصابت المسلمين خسارة عظيمة قد تنتقض بسببها عليهم أمورهم . ولو أنه سار إلى الشام فطُعن بعض أصحابه فعاد بسائرهم فانتقل الوباء إلى شبه الجزيرة لتعرض أهلها لكارثة تَوْقِيتُهُمْ إياها أول واجب على أمير المؤمنين . وهو حين يفرّ من الموت ويتحاشى نقل الوباء إلى شبه الجزيرة إنما يفر من قدر الله ، فيجنب نفسه ويجنب

شبه الجزيرة كارثة لم يردها الله لهم .

والمثل الذى ضربه عمر لأبي عبيدة فى هذا المقام يفسر رأيه فى القَدَرية خير تفسير . فإذا وجد راع وادياً فيه عُدْوة خصبة وأخرى جدبة ، فرعى الجدبة رعاها بقدر الله ، وإذا رعى الخصبة رعاها بقدر الله . ذلك أنه إما عالم بهما فمختار بينهما ، فاختياره قدر من الله لأن عقله الذى وهبه الله هو الذى هداه إليه ، أو جاهل لهما فراعٍ ما أمامه بقدر الله لأن الأخرى مغيبة عليه فلا اختيار له بين العدوتين . وقد عرف عمر العدوتين فى أمر الشام ووبائه ، فوجب عليه أن يختار بينهما . وقد استشار فاختار ففرّ من قدر الله إلى قدر الله .

ولقد زاده الله اطمئناناً إلى اختياره ما رواه عبد الرحمن بن عوف عن رسول الله أنه قال : « إذا سمعتم بهذا الوباء فى بلد فلا تَقْدَمُوا عليه ، وإذا وقع وأنتم فيه فلا تخرجوا فراراً منه » . فهذا الحديث يفرض الحجر الصحى على ما نفهمه فى عصرنا الحاضر ، إذ يعزل البلد الموبوء عن غيره من البلاد ، ثم يعزل الأصحاء من أهله عن المرضى ، ولا يسمح لهؤلاء الأصحـــاء أن يختلطوا بغيرهم فى بلد آخر مخافة أن يكون الداء جنيناً فيهم ، فتنتقل عدواه منهم ولو لم تظهر آثاره عليهم . والاحتياط لمثل هذا الاحتمال واجب . وهذا الاحتياط هو الذى دعا أمير المؤمنين لأن يعجل بالعود إلى المدينة .

وليس بمنع الحجر الصحى الناسَ من أن يتجعوا فى حدود بلدهم مكاناً يرونه أذهب للداء عنهم وذلك ما كتب به عمر إلى أبي عبيدة إذ قال له : « إنك أنزلت الناس أرضاً عميقة فارفعهم إلى أرض مرتفعة نَزِهة » . وهو بعينه ما أشار به عمرو بن العاص حين طلب إلى الناس أن يَتَجبَّلوا من الطاعون فى الجبال . ولم يكره عمر رأى ابن العاص لأنه رآه فراراً من قدر الله إلى قدر الله ، توجبه الحكمة ويقضى به العقل وتفرضه الروية . ومعنى ذلك أن ما نكسبه فى الحياة إنما نكسبه بقضاء وقدر . والعاقل الحكيم يهديه الله إلى الخير فيكون ذلك قدر الله له ، فإذا لم يغن عن إنسان تفكيره فأصابه ما يؤذيه كان ما يصيبه قدر الله له .

أترى إلى هاتين النظريتين فى مدلول القدرية ، يؤيد إحداهما أبو عبيدة وطائفة من المسلمين معه ، ويؤيد الأخرى عمر بن الخطاب وطائفة من المسلمين معه ، ويؤمن كل من الفريقين بأن له الحرية التامة فى التمسك برأيه ، وعليه فى الوقت نفسه أن يحترم الرأى الآخر ، ثم لا يطعن تأييده هذا الرأى أو ذاك فى عقيدته ولا يغير من حسن إيمانه وإسلامه ! أما وعمر أمير المؤمنين فرأيه هو الذى ينفذ ، ثم يبقى أبو عبيدة ومن معه على رأيهم لا يبدلونه

ولا ينزلون عنه ، ويبقى عمر على احترامهم واحترام رأيهم كما يبقون هم على احترامه واحترام رأيه .

هذه الحرية العقلية وما أدت إليه من تبادل الاحترام بين هؤلاء المسلمين الأولين كانت عنصر قوتهم وسبب ظفرهم بعدوهم وتغلبهم عليه وفتحهم بلاده . ذلك بأنهم كانوا يؤمنون بأن كل واحد منهم إنما يصدر فى رأيه عن قصد الخير للجماعة ، وأنه يتحرّى الحق لوجه الله جل شأنه . واختلاف الآراء فى طبيعة الإنسان ما دام حراً عزيز الجانب . وإنما يُغلّب رأىٌ حين تراه الجماعة حقًّا تقضى مصلحتها بتغليبه . ومصلحة الجماعة متأثرة أبداً بأحوال تتغير بالزمان والمكان ، فلا ضير عليها أن تغلّب الرأى الذى تراه حقًّا فى زمانها ومكانها ، وأن يبقى من يخالفونها عن رأيها أحراراً ما قصدوا إلى الخير وابتغوا برأيهم وجه الحق وحده .

قدّمت أن رأى عمر هو فى نظرى أدق تصويراً للقدرية الإسلامية . وهو يتفق كذلك مع الجبرية العلمية كما نفهمها نحن فى هذا العصر ، وكما فهمها فلاسفة الإغريق منذ أكثر من ألفى سنة . وهذه الجبرية تذهب إلى أننا غير مختارين فى رأى أو عمل ، وأن اختيارنا لهذا الرأى أو ذاك ، ولهذا الأمر أو ذاك ، يتأثر بعوامل كثيرة لا سلطان لنا عليها ، من بيئتنا ووراثتنا ونشأتنا التعليمية وحالنا الصحية كما يتأثر بغرائزنا الإنسانية وبأهوائنا الذاتية . وكثيراً ما وجّه حياتنا ووجّه تفكيرنا وعملنا حادث طارئ لم يكن فى حسباننا ولا فى حسبان غيرنا . والبيئة والوراثة والنشأة والغرائز والأهواء والطوارئ كلها من قدر الله الذى لا نملك له تحويلا ولا تبديلا . لذلك كان فاراً إلى قدر الله من يفرّ من قدر الله .

أدّت الحرية العقلية إلى تبادل الاحترام بين المسلمين الأولين ، فلم يكن ما حدث من خلاف فى الرأى بين عمر وأبى عبيدة ليمنع عمر من التفكير فى استخراج صاحبه من أرض الوباء إبقاءً عليه لخيره وخير المسلمين . والكتابان اللذان تبودلا بين الرجلين فى هذا الشأن يقفان النظر ويثيران فى الذهن شتى الفِكَر . فأنت إذا نظرت إليهما من ناحية العاطفة رأيتهما مثلا فى الوفاء قل نظيره : وفاء من عمر لأبى عبيدة أمين الأمة وصاحبه فى السقيفة والقائد السياسى الذى رضى أهل الشام حكمه ، ووفاء من أبى عبيدة لجنوده الذين خاضوا معه المعارك وبذلوا أنفسهم فى سبيل الله وأظفروه بالروم أيما ظفر . وإن أنت نظرت إليهما من ناحية الخير العام للدولة الناشئة رأيت الرجلين يختلفان رأياً على هذا الخير وهما يلتقيان مع ذلك عنده . فعمر يعرف قدر أبى عبيدة وما للمسلمين من خير فى بقائه ، ويرى لذلك

إنقاذه من وباء فتّاك لا فخر لمن يموت به . وأبو عبيدة يعرف واجبه لجنده ويرى مغادرته إياهم نجاةً بنفسه شرَّ مثل يضرب لهم ولمن دونه من أمرائهم . هذا إلى أن كلا من الرجلين يستمسك فى كتابه برأيه ، فلا يرى عمر بأساً من أن يفرّ الإنسان من قدر الله إلى قدر الله ، وهو يدعو أبا عبيدة إلى هذا الفرار ، ويصرّ أبو عبيدة على ألا يفر مما كتب فى لوح القدر وإن رأى الموت جاثماً أمامه ، فيبقى بالشام فيموت راضياً بقضاء الله وقدره . ويقرأ عمر كتاب أبى عبيـــدة ، ويرى مخالفته له وعدم إذعانه لأمره ، فلا يثور ولا يغضب ، ولا يرى فى هذه المخالفة خروجاً على واجب النظام ، بل تأخذه الشفقة بصاحبه فيبكى إذ يراه وكأن قد مات .

هذه الثقة بين أمير المؤمنين وكبار المسلمين ، مع إكباره لهم واحترامه رأيهم ، كانت من عناصر القوة التى دفعت فتحهم ، فأسرع ونجح فى أحوال رأينا من دقتها فى القادسية وفى شمال الشام شهيداً على ما كان لإيمان المسلمين بالله من فضل فى إقدامهم وجرأتهم . وقد زادتهم هذه العناصر ثباتاً وقوة . ولا عجب ، فقد كانت الحرية المحترمة والثقة المتبادلة قوام الإمبراطوريات الكبرى التى اكتسحت العالم فى عصور مختلفة ، فوجّهت سياسته وأقرّت فيه حضارة تقدّم بها خطوات فى سبيل الكمال .

لا أريد أن أختم هذا الفصل من غير أن أشير إلى ما كان لأمر عمر بعزل شُرَحْبيل ابن حَسَنَةَ عن إمارة الأردُن وإقامة معاوية بن أبي سفيان أميراً على الشام كله من أثر أدى من بعد إلى قيام الدولة الأموية ، وإلى انتقال العاصمة الإسلامية من المدينة إلى دمشق ، وإلى اختلاط العرب بغيرهم من العناصر التى دخلت فى دينهم اختلاطاً جعل الدولة الناشئة تتطور لتصير إسلامية أكثر منها عربية . فقد كان عمر لإكرامه بنى هاشم لا يولّيهم فى البلاد المفتوحة ، بل كان يبقيهم بالمدينة مع كبار الصحابة ليشيروا عليه . وقيل له فى ذلك فقال يوماً لابن عباس : « إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركك . . والله ما أدرى احترمكم عن العمل ورفعكم عنه وأنتم أهل ذلك ، أم خشى أن تَهاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم ، ولا بد من عتاب » . وكان معاوية رجلا حكيماً عصمته حكمته أن تغشى مطامعه على بصيرته ، حليماً صانه حلمه عن بطش القدرة ، ثاقب النظر يتألف الناس بسلطانه ويجذبهم إليه بحسن حديثه وحسن حيلته . وطال عهده بالشام بقية عهد عمر ، ووليه أيام عثمان ، فانتهت سياسته بأهل الشام إلى تعلقهم به والتفافهم حوله ومناصرتهم له حتى على الأدنين من أهل بيت رسول الله ، فكان لذلك من الأثر فى

حياة الإمبراطورية الإسلامية ما كان .

ولم يكن عمر ليقدر ما حدث من ذلك بطبيعة الحال ، فقد سكنت منافسات بنى عبد شمس وبنى عبد مناف منذ أسلم أبو سفيان وقومه بفتح مكة ، وقد رأيت أبا سفيان وبنيه وصدق إخلاصهم فى أثناء وقائع الفتح . لذلك نسى الناس الحفائظ القديمة . فلم تثر إقامه معاوية على إمارة الشام فى نفس شبهة ، ولم يفكر أحد فيما ترتب من بعد عليها . وهل كان لأحد يومئذ أن يفكر فى أن الثورات الكبرى كالعواطف الهوجاء ، تقتلع ، وتذر وراءها من الآثار ما تذر ، ثم تبقى كوامن الأرض كما هى ، لتنبت بعد مرور العاصفة نباتها القديم فى صورة تلائم الجو الجديد ؟

أقر عمر الأمور فى الشام ، ثم ودع أهله وعاد إلى المدينة مطمئناً إلى زوال الهولين اللذين نزلا بالمسلمين . واستقر بها زمناً سار بعده إلى مكة على رأس المسلمين يؤدى فريضة الحج كعادته كل عام . فلما فرغ منها عاد إلى المدينة يستقبل من أنباء الفرس ومن أنباء الروم فى مصر ما يتجه به إلى سياسة جديدة يواجه بها أحداثاً كان يرجو ألا تكون . فلننتقل معه لنستقبل هذه الأنباء ، ولنرى من أثرها فى سياسة الإسلام والمسلمين ما يفسح رقعة الإمبراطورية إلى حدود الصين من الشرق وإلى حدود تونس من الغرب .